الوعي مدخل لبناء اللاوعي

الباحث عبد الصمد صغيري
باحث في سلك الدكتوراه
وحدة: الاجتهاد والعمران
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس
المغرب

ملخص البحث باللغة العربية:

مسألة "الوعي" و"واللاوعي" من المقولات الفلسفية والأطروحات النفسية التي رحبت بها الكتابات الفلسفية والأدبيات النفسية على امتداد تاريخ الفلسفة ومتفرعاتها من علوم النفس والاجتماع...بين مقل ومكثر، على اختلاف الاتجاهات والمشارب المعرفية والمذاهب الفكرية للباحثين والدارسين... لما لها من آثار حاسمة في تشكيل شخصية الفرد أي فرد عبر مراحل حياته وما يطبعها من تغيرات هرمونية وفسيولوجية وفكرية ونفسية، بغض النظر عن الانتماء الديني أو العقدي له.

وقد حاولنا جهد الإمكان في هذا النظر النفسي مقاربةَ المفهوم مقاربةً فلسفية نفسية مؤطرة بالرؤية الشرعية للمسألة، في أفق إيجاد سبل عملية للاستفادة من إمكانات هذين المفهومين النفسين العميقين الحاسمين بصورة أو بأخرى في تحديد سلوك الفرد واستيعابه، وتصحيحه.

ذلك أن إصلاح المنظومة القيمية لدى الفرد والجماعة فكرا وممارسة، التي صارت متفككة غير منسجمة في زمن تغوُّل الخطاب المادي الاستهلاكي...إنما يمر عبر قناة اللاوعي الفردي والجماعي. وأيُّ محاولة لإصلاحها في غير هذا الاتجاه استنزاف للجهود من غير جدوى. بل تكريسٌ للقيم الفاسدة وتجذير لها من حيث يراد الإصلاحُ.

والرؤية الإصلاحية القيميةُ الشرعية بما هي رؤيةٌ مستمدة من خطاب الوحي الذي جعل المسألة الأخلاقية صلبَ اهتمامه، وأولى أولوياته، ونادى بها رسولُ الرحمة، ونبي الأمة صلى الله عليه وسلم «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» هي المرشحةُ للقيام بهذه المهمة الإنسانية النبيلة.

وإذا كانت النماذج القيمية في النظرة الإسلامية التي أقيم على قاعدتها اللاوعي غيرَ منحصرة، فقد اشتغلنا في هذا النظر القيمي على نماذجَ قيمية معينة شكلت قطب رحى بناء اللاوعي في الفلسفة الإصلاحية الإسلامية.

فقيمة «الإيمان» بما هو قيمة القيم، وقيمة «الرحمة» و «الجمال» و «الصبر» و«الرفق» بما هي امتدادات لها وتفرعات عنها، وغيرها، كلها قيم خضعت في البناء النفسي القيمي الشرعي لمنطق البناء اللاوعيي انطلاقاً من إصلاح الوعي.

بيد أن هذا الطرح لا يصُدُّنا عن مسألة شرعية غايةٍ في التكاليف الشرعية عموما، وهي ضرورة استحضار المكلف نيةَ التعبد في جميع التصرفات المستبطنة للقيم الشرعية أيا كانت!

من هنا بيَّنَّا على قدر الاستطاعة أنه لا تعارض –بحمد الله تعالى– بين بناء القيم وتجذيرها في البنية اللاواعية للفرد، كما هو تصور الفلسفة الإسلامية، وبين وجوب تجديد نية التعبد في جميع أعمال العبد وتصرفاته.

إن الطرح الإسلامي الأصيل، وبعده التصورات النفسية للعديد من حكماء الفلاسفة والمربين مشارقةً وغربيين، زود خبراء الهندسة النفسية والتصميم القيمي بجملة من الأساليب التربوية الناجحة في عمليات التدخل هذه. وعلى قدر إحسان استثمارها يتغير تشكيل لاوعي "المعني بعمليات الترميم هذه" في أفق بناء شخصية منسجمة، يتساوق لديها الممارسات الظاهرة واللاوعي الباطني.

هذه الأساليب التربوية راجعةٌ في المجمل إلى:

- ✓ القدوة بما هي صمام أمان التدخل العلاجي القيمي للبنية اللاواعية.
- ✓ التقبل بما هو اصطلاحٌ مع الذات يمنحها الثقة لاستئناف مسار البناء.
- ✓ أسلوب الالتزام بما هو أساس ضمان إعادة تشكيل اللاوعي.

صفوة الكلام ونخبة النظر أن الفلاح كل الفلاح في تزكية النفس البشرية عبر الاشتغال على بناء اللاوعي من جديد، ليكون في غاية الانسجام والتساوق والتناغم مع الوعي. وصدق الله القائل ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

Abstract:

The issue of conscious and subconscious

is one of the philosophical sayings and psychological theses that have been welc omed and focused

on throughout the history of philosophy and its branches of psychology and soc iology, on the various trends, Intellectual doctrines cognitive of researchers and scholars... It is crucial to the building of an individual's personality throughout life and the hormonal, physiology.

gical, intellectual and psychological changes it entails, regardless of religious or i deological affiliation.

n this psychological consideration, we tried as much as possible to approach the concept psychologically, framed by the legitimate vision of the issue, with the aim of finding practical ways to benefit from the potentials of these two deep psycholo gical concepts, which are decisive in defining, assimilating, and correcting the beh avior of the individual

This is because reforming the value system of the individual and the group in thought and practice, which has become disintegrated and inconsistent in the era of the invasion of consumer materialistic discourse... passes through the channel of the individual and collective unconscious. Any attempt to reform it in any other direction is a waste of effort and in vain. Rather, it is a dedication to corrupt values and a rooting of them in terms of reform's where the reform is intended.

The reformist vision of legitimate values, which is derived from the message of Revelation, which made the moral issue the focus of his attention, his top priority, and called by the messenger of mercy, and the prophet of the nation (peace and blessings of Allah be upon him), "I was sent for the perfection of moral ethics is eligible to be in charge of such noble mission.

If the value models in the Islamic view, based on which the unconscious is based, are not limited, we have worked in this value view on certain value models that formed the pole of the unconscious in Islamic reform philosophy.

The value of" faith "in what is the value of values, the value of" mercy"," beauty"," patience "and" kindness " in their extensions and branches, and others, are all values that in the legitimate psychological-value construction have been subjected to the logic of unconscious construction starting from the reform of consciousness.

However, this question does not distract us from the issue of legitimacy, which is a very legitimate cost in general, which is the need for the legally competent to evoke the intention of worship in all actions underlying legitimate values, whatever they may be.

Thus, by the praise of Allah Almighty we tried as much as possible to show that there is no conflict- between the values and their rooting in the unconscious structure of the individual, as conceived by Islamic philosophy, and the obligation to renew the intention of worship in all the actions and actions of the slave.

The original Islamic thesis, followed by the psychological conceptions of many wise philosophers and western and Islamic educators, provided psychological engineering and value design experts with a set of successful pedagogical methods in these interventions. As good as her investment is, the formation of the unconscious "concerned with these restoration processes" changes in the horizon of building a harmonious personality, for which the apparent practices and the subconscious are consistent.

These pedagogical methods are generally due to:

An ideal example of what is a valuable therapeutic intervention safety valve for the unconscious structure.

Accepting what is a convention with oneself gives her confidence to resume the path of construction.

The technique of adherence to what is the basis of ensuring the restructuring of the subconscious.

Ina nutshell success is verily tightly related to the purification of the human soul by working on rebuilding and the unconscious, so that will be very harmonious, consistent and in consciousness.

Allah the almighty has spoken truly:

And [by] the soul and He who proportioned (8) And inspired it [with discernment of] its wickedness and its righteousness, (9) He has succeeded who purifies it, and he fails that corrupts it[1].

Key terms: unconscious/ conscious /building of an individual's personality purification / moral ethics / An ideal example/ the values / Accepting.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى ءاله وصحبه أجمعين

ديباجة:

مسألة "الوعي " و"واللاوعي" من المقولات الفلسفية والأطروحات النفسية التي رحبت بها الكتابات الفلسفية والأدبيات النفسية على امتداد تاريخ الفلسفة ومتفرعاتها من علوم النفس والاجتماع...بين مقل ومكثر، على اختلاف الاتجاهات والمشارب المعرفية والمذاهب الفكرية للباحثين والدارسين[2]... لما لها من آثار حاسمة في تشكيل شخصية الفرد أي فرد عبر مراحل حياته وما يطبعها من تغيرات هرمونية وفسيولوجية وفكرية ونفسية، بغض النظر عن الانتماء الديني أو العقدي له.

وسنحاول جهد الإمكان في هذا النظر النفسي مقاربةَ المفهوم مقاربةً فلسفية نفسية مؤطرة بالرؤية الشرعية للمسألة، في أفق إيجاد سبل عملية للاستفادة من إمكانات هذين المفهومين النفسين العميقين الحاسمين بصورة أو بأخرى في تحديد سلوك الفرد واستيعابه، وتصحيحه.

دلالة الوعي واللاوعي في التداول الفلسفي:

يقصد ب "الوعي " في التداول الفلسفي" صدور سلوكات الفرد ومواقفه ونشوء مشاعره...عن حالة من الحضور الذهني والإدراكي للشخص إلى حد ما...بمعنى أن يكون الشخص حاضر الذهن والفكر لحظة القيام بأي فعل أو تصرف..

وهو حضور في العمق يبقى نسبيا، لأنه لا يمكن أن يتجرد الفرد تجردا كليا من الخلفية الفكرية والثقافية والمعرفية التي تؤطر لاوعيه، لأنها ليست مجرد ظاهرة أو حالة تحضر وتغيب، يستدعيها الفرد متى شاء ويهملها متى أردا، كلا، وإنما هي بنيات عصبية متجذرة مغروسة في شخصيته مركوزة في كيانه.

أما اللاوعي فهو كما أشرنا تحكمُ الجملة العصبية بحمولتها الثقافية والمعرفية –التي تكونت عبر امتداد حياة الفرد– في تصرفاته ومشاعره ومواقفه بشكل لا يبدو جليا إلا بالتتبع والدراسة.

بيد أن الفصل بين الوعي واللاوعي في شخصية الفرد ليس سوى فصل إجرائي وعمل منهجي يتوسل به لتحقيق قدر من فهم جانب من جوانب النفس البشرية ذات التكوين المعقد، وإلا فإن التداخل بين المفهومين حاصل حاضر كل لحظة من لحظات حياة الإنسان. بل إن بنية لاوعيه في تشكل مستمر وتغير متواصل مصاحبٍ لأفعاله الواعية، وإن لم يبدُ ذلك جليا.

ومن حسنات هذا الطرح أنه بقدر تعقده بقدر إفادته المربين والمهتمين بعلم السلوك بإمكانات هائلة لتعديل سلوكات الفرد في بنيتها العصبية العميقة، لا الظاهرة فقط التي سرعان ما تُكشف سوأتُها عند أول امتحان أو موقف.

من ههنا إذن يجملُ بالمربين والمهتمين بإصلاح سلوكات الإنسان عموما والأطفال خصوصا استثمار الإمكانات الهائلة التي يتيحها هذا الطرح، في عملية إعادة تشكيل لاوعي الإنسان تشكيلا صحيحا انطلاقاً من منظومة قيم فضلى، ومبادئَ مُثلى تمثل أطرا مرجعية وقوالب معرفية له[3]، بما يسدد تصرفاتهم، ويرشد سلوكاتهم، سعياً لبناء شخصيتهم بناءً متوازنا تشكل القيم أساسَه وعموده الفقري.

بناء اللاوعي جسرٌ متين لإصلاح المنظومة القيمية فكرا وممارسة:

تأسيساً على ما مضى بيانه نرى أن إصلاح المنظومة القيمية لدى الفرد والجماعة فكرا وممارسة، التي صارت متفككة غير منسجمة في زمن تغوُّل الخطاب المادي الاستهلاكي...إنما يمر عبر قناة اللاوعي الفردي والجماعي. وأيُّ محاولة لإصلاحها في غير هذا الاتجاه استنزاف للجهود من غير جدوى. بل تكريسٌ للقيم الفاسدة وتجذير لها من حيث يراد الإصلاحُ.

والرؤية الإصلاحية القيميةُ الشرعية بما هي رؤيةٌ مستمدة من خطاب الوحي الذي جعل المسألة الأخلاقية صلبَ اهتمامه، وأولى أولوياته، ونادى بها رسولُ الرحمة، ونبي الأمة صلى الله عليه وسلم «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[4] هي المرشحةُ للقيام بهذه المهمة الإنسانية النبيلة. وقد جربت البشرية عبر تاريخها رؤىً ونماذجَ ذات نزوع متباينة، لإعادة الناس إلى سكة الأخلاق وجادَّة القيم، فهل جنت غيرَ مزيد من التردي القيمي والانسلاخ الأخلاقي!

إن الوصفة السحرية التي تقدمها الرؤيةُ الإسلامية وصفة منسجمة، تنظر إلى شخصية الإنسان في تكاملها وتداخل أبعادها من جهة أولى، كما تستحضر تفاعلها السلوكي داخل النسيج الجماعي من جهة ثانية.

من هنا، فإصلاحها ليس إصلاحاً مجزَّئا يهتم بسلوك دون غيره، أو بموقف دون آخر، كلا. وإنما هو إصلاح يركز على مسألةٍ، هي صمام أمان وشراع نجاة الإصلاح القيمي لدى الفرد والجماعة. يتعلق الأمر إذن ببناء اللاوعي انطلاقاً من قاعدة الوعي برؤية نفسية متوازنة متدرجة تنطلق من الحاضر القيمي المتردي مستشرفةً المستقبلَ القيمي الواعد.

نماذج قيمية لبناء اللاوعي في الفلسفة الإصلاحية الإسلامية:

إذا كانت النماذج القيمية في النظرة الإسلامية التي أقيم على قاعدتها اللاوعي غيرَ منحصرة، فيسعنا الإشارة إلى نماذجَ قيمية معينة شكلت قطب رحى بناء اللاوعي في الفلسفة الإصلاحية الإسلامية.

إن قيمة «الإيمان» بما هي قيمة القيم، وقيمة «الرحمة» و «الجمال» و «الصبر» و«الرفق» بما هي امتدادات لها وتفرعات عنها، وغيرها، كلها قيم خضعت في البناء النفسي لمنطق البناء اللاوعيي انطلاقاً من إصلاح الوعي.

فالله عز وجل، إذ يأمر المؤمنين بالإيمان[5]﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾[6]، والرسول صلى الله عليه وسلم حينما ينهى هذا عن الغضب[7]، أو يرشد ذاك إلى التحلي بقيمة الصبر أو العفة[8] أو غيرها...وقد علِم أن المأمور لا يتصف في حاضره بهذه القيم فإنما يقصد إلى بناء هذه المنظومة القيمية في بنيته العصبية، بحيث تصير شعوره وإحساسه وكيانه ولغته التي يتكلم بها، طبعا عبر التدرج انطلاقا من الوعي بكل موقف موقف وسلوك سلوك.

إن توجيه الطفل مثلا إلى الاعتناء بقيمة "الجمال "[9] في امتداداتها السلوكية الظاهرة، في موقف أو موقفين دون رعاية لبناء هذه القيمة في لاوعيه العصبي بحيث تصدر عنه بصورة لا واعية في مختلف المواقف والسياقات هُوَ ضرب من الإصلاح التجزيئي، الذي لن يحقق ثماره النفسية وآثاره السلوكية المبتغاة. بل ربما يزيد من تجذر القيم السالبة المضادة لمعاني الجمال في شخصيته، لا سيما إذا ما عُزِّز هذا البناءُ الخاطئ بأساليبَ خاطئة من التعنيف والترهيب المادي والمعنوي، مما ينتج معه شخصية متناقضة حد التناقض مضطربة تمام الاضطراب، إذ تحرص أن تبدو في المواقف التي تسلط عليها الأضواء، وترقبها العيون شخصية متحلية بقيمة " الجمال

" في امتداداتها السلوكية، لكن ما إن تختفي عن الأنظار حتى ترتد مستصحبةً بنيتها اللاشعورية المتجذرة بما تحمله من قيم مناقضة تماما لما يراد بناءه.

لا تعارض بين البناء اللاواعي للقيم ووجوب تجديد نية التعبد بالقيم:

في سياق حديثنا عن البناء اللاواعي للقيم قد يثار إشكال علمي شرعي مداره: هل يجوز شرعا أن تبنى القيم الشرعية إيمانا، أو صدقا، أو عدلا أو برا أو إحسانا أو ...بصورة لا واعية! أليس مطلوبا شرعا من المكلف تجديد نية العبادة في كل تجلٍّ من تجليات القيم في سلوك الفرد، وفي كل زمان ومكان، حتى يكون أجره مستمرا وثوابه متتابعا موصولا غير مفصول! أليست وردت النصوص الصريحة القطعية بضرورة تجديد نية التعبد بالقيم، وفي مقدمتها تجديد الإيمان[10] فكيف يكون إذن بناء القيم بصورة لاواعية والشارع الحكيم قد طلب منا تجديد النية بتجدد الأعمال التي تعكس في جوهرها قيما شرعية مثلى ومعاني ربانية فضلى! أليس تجديد النية يكون بصورة واعية تمام الوعي، ونظرنا في هذا البحث يقتضي بناء القيم على مستوى اللاواعي!

والجواب والله الموفق بمنه وكرمه للصواب: أنه لا تعارض بحمد الله تعالى بين بناء القيم وتجذيرها في البنية اللاواعية للفرد، وضرورة استحضار نية التعبد في جميع التصرفات المستبطنة للقيم الشرعية أيا كانت!

وبيانه: أن دعوتنا إلى ضرورة بناء القيم في البنية اللاواعية للفرد ليس معناه، أن يمارسها سلوكيا ويترجمها عمليا بصورة لاواعية! أبداً. لا يقول بهذا عاقل متبصر. وإنما غاية دعوتنا تلك أن تلتحم القيم بشخصية الفرد بحيث تصير جزءا لا يتجزأ منه، ولا يكون ذلك إلا بتكرار مواقف ترسيخها وتثبيتها، حتى تكون ترجمتها السلوكية سهلة ميسورة، لا تحتاج إلى كثير مجاهدة ومكابدة، وذاك صريح حديث أمنا الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها "إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ ما نَزَلَ منه سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ والنَّارِ، حتَّى إذَا ثَابَ النَّاسُ إلى الإسْلَامِ نَزَلَ الحَلَالُ والحَرَامُ، ولو نَزَلَ أَوَّلَ شَيءٍ: لا تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقالوا: لا نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا، ولو نَزَلَ: لا تَزْنُوا، لَقالوا: لا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا"[11]

أما تجديد قصد التبعد مع كل سلوك فعلاً أو تركاً فمطلوب شرعاً، بل هو قاعدة أساس في دين الله تعالى وليس ببعيد عنا حديث إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى.

أساليب تربوية ناجعة لتجذير اللاوعي:

انتهى بنا التحليل إلى قضية جوهرية، وهي أن بناء القيم ليس مسألة موقف واحد يصدر عن وعي الشخص، أو توجيه وإرشاد يقدم إليه فيلتزم به عبر امتداد حياته، كلا! وإنما هو بناء يشتغل على البنية الفكرية اللاواعية للفرد انطلاقا من ممارسته الواعية، وذلك ابتغاء تجذريها وتمتينها حتى تصير جزءا لا يتجزأ من ذات الشخص وكيانه.

ثم إن الصعوبة لا تختزل في إرساء هذه البنية المعقدة اللاواعية استثمارا لمعطيات قاعدة الوعي لدى الفرد...وإنما ثمة جانب آخر لصعوبة هذا الاشتغال النفسي، يرتبط ب "هدم البنية المتجذرة اللاواعية لدى الشخص ".

علاوة على أن الهدم ليس عملية مادية صِرْفة تتم في لحظة أو أيام حتى. ثم تشرع في إعادة التشكيل القيمي والبناء اللاواعي، بكل أريحية وسلاسة. كلاَّ !

ذلك أن النفس البشرية بنية معقدة حد التعقيد معرضة لجملة من التفاعلات. وأي خطإ في أي مستوى من مستويات التدخل فيها هدما لبنية فاسدة، أو إرساء لبنية قيمية جديدة، لن يزيد الوضع إلا تعقيدا وتأزما للأخطاء الحاصلة فيها.

من هنا لا يتصدى لهذه المهمة الصعبة الدقيقة إلا الخبراء المؤهلون المستجمعون لأدوات كثيرة المسلحون بقواعد عديدة، الذين يحسنون استثمارها في عمليتي الهدم والبناء هذه. وهو في النهاية مقتضى من مقتضيات قاعدة" تعليم الناس بصغار العلم قبل كباره"[12]

إن الطرح الإسلامي الأصيل، وبعده التصورات النفسية للعديد من حكماء الفلاسفة والمربين مشارقةً وغربيين، تزود خبراء الهندسة النفسية والتصميم القيمي بجملة من الأساليب التربوية الناجحة في عمليات التدخل هذه. وعلى قدر إحسان استثمارها يتغير تشكيل لاوعي "المعني بعمليات الترميم هذه " في أفق بناء شخصية منسجمة، يتساوق لديها الممارسات الظاهرة واللاوعي الباطني.

وحسبنا ههنا التوسل ببعض القواعد والأساليب الأساسية في عملية التدخل هذه، نفصلها كما يلي:

1. القدوة صمام أمان التدخل العلاجي للبنية اللاواعية:

مشكلة جمهرة المتدخلين في عملية إصلاح النفس البشرية فقدان القدوة الحسنة بما هي نموذج عملي يعكس صدق خطاب الداعية والمصلح والقائد والموجه.

ولهذا السر بعث الله عز وجل الرسل والأنبياء عليهم السلام في أقوامهم، بما هم قدوات صالحة، وأسوة حسنة، ونموذج حي يمثل عمق خطاب الله تعالى إلى أمة من الأمم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾[13]

حتى جاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قدوة القدوات وإمام الرسل عليهم الصلاة والسلام، فكان قدوة صالحة ومثلا أعلى وإسوة حسنة مهيمنة على ما بين أيديها من نماذج الرسل عليهم السلام، وحاكمة على الناس كل الناس إلى يوم الدين ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[14].

من هنا وجب على المتدخل في عملية الاصلاح أن يعكس عمق هذه القدوة في نفسه أولا، حتى يقدم أمام أعين المعني بعملية التوجيه وتشكيل اللاوعي القيمي لديه نموذجا عمليا صادقا، في صورة مشرقة من الانسجام بين الخطاب والممارسة، بين الوعي واللاوعي، بين التمثل والامتثال.

وحينما تغيب هذه القدوة المثال أو تحضر حضورا باهتا، أو تحضر ولكن غير مقدمة سوى نموذج متناقض فإن النتيجة تناقض واضطراب في شخصية المعني بعمليات الإصلاح والهدم والبناء القيمي. ولقد أحسن من قال:

يا أَيُّها الرَجُلُ المُعَلِّمُ غَيرَهُ هَلا لِنَفسِكَ كانَ ذا التَعليمُ

تَصِفُ الدَّواءَ لِذي السَّقامِ وَذي الضَّنا كيما يَصحّ بِهِ وَ أَنتَ سَقيمُ

وَتَراكَ تُصلِحُ بالرشادِ عُقولَنا أَبَداً وَ أَنتَ مِن الرَّشادِ عَديمُ

فابدأ بِنَفسِكَ فانهَها عَن غَيِّها فَإِذا اِنتَهَت عَنهُ فأنتَ حَكيمُ

فَهُناكَ يُقبَلُ ما تَقولُ وَيَهتَدي بِالقَولِ منك وَينفَعُ التعليمُ

لا تَنهَ عَن خُلُقٍ وَتأتيَ مِثلَهُ عارٌ عَلَيكَ إِذا فعلتَ عَظيمُ[15]

2. التقبل اصطلاحٌ مع الذات يمنحها الثقة لاستئناف مسار البناء:

التقبل مصطلح نفسي أصيل، يراد به تقبل الذات أولا بهفواتها وزلاتها وأخطائها المتراكمة في بنية لاوعي الفرد، في بعد تام عن تأنيب الضمير وجلد الذات والأسى على أخطاء البناء التي لا دخل للفرد فيها...إنه عملية تصالح ومصالحة مع الذات التي يراد إعادة تشكيل لا وعيها على قاعدة الوعي.

وثمرة التقبل الإيجابي قدرة الفرد على تجاوز تراكمات أخطاء الماضي الفكرية وإعادة نسيج البنية القيمية لديه بناء متينا منسجما.

وكثير من حالات الفشل في إعادة البناء والتشكيل الجديد راجعة بالأساس إلى رفض الذات وعدم تقبل أخطائها المتجذرة أصولها في البنية اللاواعية، مما يدخلها في دوامة من الصراع الواعي واللاواعي التي تعوق عملية الترميم والاصلاح المرادة.

إن تقبل تردد الأفكار الخاطئة، والمشاعر الخاطئة، والسلوكات الخاطئة هو الطريق المختصر للتفكيك وإعادة البناء.

ذلك أن الثوب المتسخ أحوج إلى الغسل منه إلى الطيب والعطر، وأن اللوح الممتلئ بخربشات وتسويدات وأخطاء...، لا يمكنك الكتابة عليه إلا بعد محوه وتنظيفه أولا. وإلا فإن الكتابة عليه بحاله تلك لن يكون لها جمالها وروعتها وبهاؤها.

فالحاجة إذن ماسة إلى محو لوح الذات قبل غرس أي قيم أو مبادئ فيها.

3. أسلوب الالتزام أساس ضمان إعادة تشكيل اللاوعي:

إعادة بناء لاوعي الفرد استنادا إلى معطيات الوعي الحاضر ليس بالمسألة السهلة الهينة اليسيرة التي لا يجد البناء في طريقه معها شوكا ولا عوائق. على العكس تماما يواجه صعوبات وتحديات مصدرها التفاعلات النفسية والتموجات العصبية المعاكسة لعملية البناء...من هنا كان الموجه والموجه، الباني والمبني، المصلح والشخصية...في مسيس الحاجة إلى الالتزام والصبر والتريث والتأني بعيدا عن كل تأفف أو ضجر أو تذمر من مختلف الصراعات النفسية التي تقف حجر عثرة في طريق سلاسة البناء وعفويته.

وكل عنف أو تعنيف أو صراع أو تصارع مع تجلٍّ من تجليات تفاعلات النفس المراد بناء لاوعيها من جديد ليس من مصلحة الاشتغال في شيء، بل يأتي بنتائج عكسية تماما.

وهذا أحد مفسرات ضعف المردودية وانحسار النتائج وطول عمر البناء التي تحصل كثيرا في مختلف أشكال عمليات إعادة البناء القيمي اللاواعي.

مسك الختام:

صفوة القول إذن وزبدة الكلام في هذا الطرح النفسي الدقيق الذي يشتغل على مسألة غاية في العمق والحساسية والأهمية والدقة نقول:

إن التسلح بتلكم الأدوات المنهجية والتترس بهذا النمط من الفهم الدقيق لطبيعة التفاعلات والصراعات التي تحدث على مستوى النفس البشرية في مختلف تمظهرات العلاقة الجدلية القائمة بين الوعي واللاوعي من شأنه أن يؤمّن عملية الإصلاح هذه، ويصل بالمشتغل والمشتغل عليه إلى بر الأمان، مع نحت جديد بمعالم جديدة لشخصية متزنة قوية ينسجم وعيُها مع لاوعيها إلى حد كبير، بعيداً عن مختلف التناقضات التي تحدث في شخصية الإنسان مؤشرةً على الشرخ الكبير والانفصام التام بين سلوكات الوعي وخبرات اللاوعي.

ختاما: إن الفلاح كل الفلاح في تزكية النفس البشرية عبر الاشتغال على بناء اللاوعي من جديد، ليكون في غاية الانسجام والتساوق والتناغم مع الوعي. وصدق الله القائل ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[16]

الهوامش:

1 - Ash-Shams Verses' 7,8.9

2 من الفلاسفة الغربيين الذين تناولوا مسألة " الوعي " و "اللاوعي " راسل الذي يؤكد على أنّ الوعي وخاصة الوعي بالعالم الخارجي يرتبط بشكل أساسي بالإدراك الحسي.

أما ابن رشد فقد بنى مفهوم الوعي، استنادا إلى منهج الاستقراء في فهم العالم الخارجي.

3 يعدّ فرويد أول من أطلق مفهوم اللاوعي على كلّ التصورات والرغبات التي يكبتها الأفراد نتيجة لتعارضها مع المنظور الأخلاقي الاجتماعي، وأضاف في تفسيراته حول اللاوعي إلى أنّ اللاوعي يعمل جاهداً حتى يصل إلى نقطة الإدراك لدى الأفراد بدءاً من الأحلام، ووصولاً إلى زلات اللسان، أما الوعي فعلى عكس اللاوعي يعبر عن إدراك الفرد لتصرفاته، وسلوكه، وعملياته النفسية والعقلية.

4 وفي رواية بلفظ "صالح الأخلاق". رواه البخاري في "الأدب المفرد " رقم 273، وابن سعد في "الطبقات" والحاكم، وأحمد، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" .

وقال ابن عبد البر:"هو حديث صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره."

5 عدد مرات ذكر الإيمان ومشتقاته في القرآن811. مقال «الإعجاز العددي في القرآن» عن مجلة دعوة الحق المغربية. العدد200

6 سورة النساء الآية136

7 ذكر الغضب في القرآن 24 مرة. المرجع نفسه.

وعن أَبي هريرة: أَنَّ رَجُلًا قَالَ للنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي، قَالَ :لا تَغْضَبْ، فَرَدَّدَ مِرَارًا قَالَ :لا تَغْضَبْ رواه البخاري.

8 في صحيح النسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ ناسًا مِنَ الأنصارِ سألوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأعطاهم، ثمَّ سألوه فأعطاهم، حتَّى إذا نَفِدَ ما عِندَه قال: ما يكونُ عِندي مِن خيرٍ، فلَنْ أدَّخِرَه عنكم، ومَن يستعفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ عزَّ وجَلَّ، ومَن يَصبِرْ يُصبِّرْه اللهُ، وما أُعْطِيَ أحدٌ عطاءً هو خيرٌ وأوسَعُ مِنَ الصَّبرِ.

9 روى البيهقي في شعب الإيمان، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :إنَّ اللهَ تعالى إذا أنعَم على عبدٍ نعمةً، يحبُّ أن يرى أثرَ النِّعمةِ عليه، ويكره البُؤسَ، والتَّباؤسَ، ويُبغِضُ السائلَ المُلْحِفَ، ويحبُّ الحييَّ العفيفَ المتعفِّفَ.

10 ثبتت صيغ متنوعة في تجديد الإيمان منها حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فسلوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم .رواه الطبراني في الكبير. وقال الهيثمي في المجمع :إسناده حسن.

ومنها حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :جددوا إيمانكم، قيل يا رسول الله: وكيف نجدد إيماننا؟ قال: أكثروا من قول لا إله إلا الله .رواه أحمد والحاكم والطبراني، وحسنه العجلوني في كشف الخفاء. وقال الهيثمي :رجال أحمد ثقات .وضعفه الذهبي لوجود صدقة بن موسى في سنده، وهو ضعيف.

11 من حديث أمنا عائشة رضي الله عنها . أخرجه البخاري في صحيحه.

12 في شرح ابن بطال على صحيح البخاري " وَيُقَالُ :الرَّبَّانِيُّ الَّذِى يُرَبِّى النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ."

13 سورة الأنعام الآية91

14 سورة المائدة الآية50

15 الأبيات للشاعر الأموي المتوكل الليثي.

16 سورة الشمس الآيات 7-8-9